محمد بن مرزوق الخطيب السياسي الأديب.

د. فتحي محمد
جامعة سيدي بلعباس

تقديم:

ورد في الأثر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام ، أنه قال: من أرخ مؤمناً فكأنما أحياه ومن قرأ تاريخه فكأنما زاره ، ومن زاره استوجب رضوان الله وحق على المزور أن يكرم زائره)1، إيماناً منا بقدسية القول وأحقيته في التعريف بأعلام أمتنا والوقوف على خلالهم الحميدة ومآثرهم الجليلة ، ارتأينا تعريف القارئ الكريم بأحد أفذاذ الجزائر الذي لمع نجمه في القرن الثامن الهجري ، عايش تحولاته السياسية والثقافية والأدبية مع ملوك بني الأحمر في غرناطة وبني مرين في العدوة المقابلة ، واطلع على أحوال البلدان المشرقية من خلال تطوافه في حواضرها محتكاً بجهابذة الفكر والسياسة والأدب.

فمن هو هذا العلم؟ وما هي عوامل نبوغه؟ وما هي إسهاماته الأدبية والسياسية مغرباً ومشرقاً؟ نحاول التعرف عل هذه الشخصية الفذة من خلال الترجمة لها والوقوف على مآثرها.

نـــســـبه:

ينتمي ابن مرزوق إلى قبيلة عجيسة البربرية التي استوطنت أحواز قلعة بني حماد في جبال المسيلة، وإقليم الزاب بالشرق الجزائر، ثم هاجرت إلى القيروان وفي غمرة الزحف الهلالي عادت لتستقر في تلمسان، وتوارثت سدنة ضريح الولي الشاعر الصوفي أبو بومدين شعيب الأندلسي المولد والنشأة، كابر عن صاغر لكونه صفي وخليل الجد الأكبر لأسرة المرازقة أبو بكر بن مرزوق الفقيه الصوفي.

مولده ونشأته:

ولد أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الأول بن محمد الثاني بن أبي بكر بن مرزوق ، في تلمسان سنة (711 / 781 ـــ 1311/ 1379) ، ويعرف بالخطيب والجد والرئيس ، فهو سليل عائلة عريقة عرفت بحبها للعلم وأهله والنبوغ فيه ، وبالجاه والثراء المادي والروحي ، بيتهم بيت علم وولاية وصلاح (2وتقوى،§§ فلأركان الدين حافظين وللمعاصي رافضين فكانت رغبتهم قوية في جعل التصوف تصوفاً شعبياً سنياً ونشره على نطاق واسع والنظر إليه بالمنظار الإسلامي المتكامل3 ، كما ينظر إليه أبو مدين شعيب وأبو حامد الغزالي والقشيري وغيرهم.

نشأ محمد وتربى بمسقط رأسه في جو أسري علمي محفوف بالمكارم، حفظ كتاب الله الكريم على عادة أقران عصره وتعلم مبادئ اللغة العربية وحذق علومها على مشايخ تلمسان، ثم أخذ عن علماء بجاية فعُد نبراس زمانه، في عالم التاريخ والأدب والسياسية والدين، سيما في مصر والمغرب والأندلس والشام 4، ومن أهم أعلام القرن الثامن الهجري في هذه الأقطار.

رحـــــلاتـــــه:

إلى الحجاز.

رحل محمد ابن مرزوق مع أبيه أحمد إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ولما قضى نسكه تفرغ لطلب العلم فأخذ عن شيوخ الحرمين ، وممن التقى بهم في الموسم الفضيل ، ثم ارتحل بنفسه يغذُّ السير ويقطع المفاوز والقفار بمثابرة وصبر لزيارة الحواضر العلمية مثل القدس ، دمشق، القاهرة، ومكة والمدينة وغيرها، طاف بهذه الحواضر وتتلمذ على جلة مشايخها واغترف من عبيق فيضهم الروحي والأدبي وتزود بخبراتهم المعرفية والروحية ، ولكثرة شيوخه ، أفرد لهم مؤلفاً خاصاً

أسماه(عجالة المستوفز المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز) ، وهذا ما كان يرنو إليه الأب في هذه الرحلة من اصطحابه لابنه وهو في مقتبل العمر لطلب العلم أسوة بمشاهير عصره ، ألزمه حضور المجالس العلمية وحلقات الإقراء وكفله مؤونة ذلك ، نلفيه يقول : أن أبي هاجر من أقصى بلاد المغرب لطلب العلم وهو المنفق علي ولا أريد انتقاص أجره5 عند الله.

كان الوالد أبو العباس أحمد بن مرزوق صاحب فضل ومحل احترام وتقدير في المجتمع المشرقي عامة والمصري خاصة ، جاور في القاهرة القاضي شهاب الدين بن فضل الله صاحب قلم الإنشاء ورئيس الكتابة وحامل راية الأدب بمصر والشام وقتها، فكان إذا لقي أحدهم أحمد بن مرزوق وهو راكب يترجل تقديراً له وكذلك يفعل معه أمراء مص 6، وقد نرجع تبوء أحمد المرزوقي لهذه المكانة الرفيعة ، إلى ثرائه المادي وزهده في الدنيا وهي مبسوطة في يده ، وتبتله وتصوفه ولبسه الخرقة الصوفية مع ابنه محمد على يد الشيخ شهاب الدين بن أحمد بن الشيخ عماد الدين عبد الرحيم السمرائي خادم الشيخ الصوفي السهروردي 7ومن جهة ثانية وفَّر لابنه دثاراً روحياً وأدبياً متميزاً.

نزل ابن مرزوق مصر مع أبيه في ضيافة الشيخ المرشدي ، صاحب زاوية فوة المرشدية يقول عنه : لقيناه في ارتحالنا إلى المشرق حين حملني إليه أبي وأنا ابن تسع عشرة سنة ، فنزلنا عنده فوافتنا صلاة الجمعة ومن عادته أن لا يتخذ للمسجد إماماً ، وحضر يوماً من أعلام الفقهاء ، فلما قرب وقت الصلاة تشوف من حضر من الخطباء والفقهاء إلى إمامة المصلين ، فإذا الشيخ رفع بصره إلي وقال : لي يا محمد تعال ، فقمت فباحثني في موضع خلوة ، ثم قادني إلى المنبر ، وقال ارق وناولني السيف الذي

يتكئ عليه الخطيب عندهم ، فقمت وانطلق لساني بما لا أدري ما هو ، إلا أني أنظر الناس وهم ينظرون إلي ويخشعون من وعظي ، فأكملت الخطبة ونزلت، فقال لي : أحسنت يا محمد ، وقرَّاك عندنا أن نوليك الخطابة ، وأن لا تخطب بخطبة غيرك ما وليت وحييت ، ثم سافرنا وحججنا8 بيت الله.

يستقرأ من النص أن إلقاء الخطبة كانت أثناء الرحلة قبل أداء فريضة الحج، وأن الشيخ المرشدي كان على دراية مسبقة بنبوغ الشاب وسعة ثقافته وغزارة علمه، لكونه صديق والده، وعلى الرغم من ذلك لم تطمئن نفس الشيخ من القدرات المعرفية لضيفه الشاب إلا من خلال الجلوس معه في امتحان قصير في خلوته، بعدها قدَّمه لخطبة الجمعة على جهابذة كبار فقهاء وعلماء الديار المصرية، الذين كانت أعناقهم تشرئب إليها، لأن خطيب الجمعة كان لا يعين إلا حين موعد الصلاة.

أبان ابن مرزوق وهو فتى يافعاً دون سن العشرين عن قدرته الخطابية التي ارتجلها دون تحضير مسبق ، فكان لها وقعها الإيجابي في نفوس مستمعيه (أني أنظر الناس وهم يخشعون من وعظي) ، والخطيب لا يؤثر في المتلقي إلا إذا كان يتمتع بعقل نير وثقافة واسعة وموهبة خطابية وقدرة على سبر أغوار نفوس الحضور ومتحلياً برباطة جأش وصوت جوهري وإلقاء حسن وكل ما من شأنه أن يستميل مستمعيه ويؤثر فيهم 9، ولعل هذه العوامل قد توفرت في ابن مرزوق الابن، لأن الخطابة في مفهومها الاصطلاحي نص إبداعي وفن أدبي نثري ، يتفرد في موضوعه أو يتعدد.

سرَّ الشيخ المرشدي واستبشر خيراً بمستقبل الشاب فأثنى عليه وأقرَّه خطيباً، وقد تُعد هذه إجازة علمية قبل أوانها والتي لم تكن وقتئذ بمرسوم رسمي، فعلا شأن ابن مرزوق وأضحى علماً من أعلام زمانه، لأن حامل هذا اللقب، قد يرشح ليكون مرجعاً في الفتوى وقضايا الشريعة الإسلامية، فقد فرض نفسه بعلمه وبخلقه ودينه وتكوينه العلمي المحلي قبل الجلوس لمشايخ المشرق والإقراء لهم.

أفحم الشاب الخطيب الحضور بفصاحة لسانه وحسن معانيه بلغة تنم عن ثقافة أدبية واسعة وبتربيته الحكيمة وشخصيته الفذة، فتحدث المجتمع المصري بهذا التألق الخطابي لابن مرزوق وأصبح حديث الناس، وأقبل الحضور عليه بالتقبيل والثناء حباً وإعجاباً بغزارة علمه ونبوغه المبكر.

عُرض على محمد الشاب بالقاهرة تولي الإقراء والجلوس لحلق التدريس وهو في رحلته إلى طلب المزيد من العلم وقدموا له مرتباً مغرياً قدره ثمانية دنانير من الذهب، ونحو مائة وثمانين وسقاً من القمح في السنة وهو مرتب سخي ومغري ، ثم عرضوا عليه مجلساً آخر بجامع ابن طولون ، إلا أن والده رفض هذا العرض الجذاب قائلا لابنه : إنما هاجرت بك لطلب العلم ، لا للظهور في الدنيا والاستكثار منها 10، فتلك لم تكن الغاية التي يرنو إليها الأب في امتشاق الصعاب ، بل كانت غايته العليا طلب العلم لذات العلم وطرق أبواب المجد ، قمين به وهو الخبير البصير أن يحجب عن ابنه المغريات المطروحة ، لأنه يدرك

الاستعداد الفطري لفلذة كبده وقدراته وعزيمته القوية في السير سيراً حثيثاً نحو الهدف المرجو من الرحلة ، فالمواهب البشرية خامات كامنة قد تهوي إلى الضياع والذبول إذا لم تحظ بصانع حاذق يوجهها الوجهة الصحيحة لتنتفع بها الأمة في هيكل بناء حضارتها وتفاخر بها غيرها ، لأن الاستثمار في العلم وبناء العقول وصقلها أفضل ما يمكن أن تقوم الأسر وأولي الأمر في إعداد الناشئة لبناء المستقبل فلا تنعم البشرية بغير العلم وبدونه تبقى حياتها بهيمية وعالة على غيرها ، ولولاه لما خلَّد التاريخ ذكر المرزوقي وأقرانه وعلت أمة على أخرى.

والسؤال الذي يفرض نفسه على المتلقي أين وممن اكتسب ابن مرزوق هذه الطاقة العلمية والخطابية التي أبان عنها أثناء رحلته قبل بلوغه الديار المشرقية بقوله: ثم (سافرنا وحججنا.(

لا جرم أن هذه الكفاءة العلمية سبقتها عدة وإعداد وهي ثمار غراس تكوينه القبلي التي اكتسبها وتلقاها في الجزائر، لأن البلاد المغاربية في عمومها كانت تتوفر على إرث أدبي وعلمي لا فت، إذ بلغت أوج رقيها الأدبي والنقدي في القرن الخامس الهجري الذي يعد العصر الذهبي للأدب المغاربي بظهور ابن رشيق المسيلي والنهشلي، والحسن بن علي التاهرتي (ت501) هـ الذي تتلمذ عليه القاضي عياض وأخذ عنه في الأدب والنحو وعلوم الحديث وغيرها من العلوم ، وابن النحوي (ت 513 هـ) ويحي الورجلاني صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم ، والقائمة لا تحصر في هذا المقام.

نما هذا الإرث العلمي والأدبي وتطور في ظل الدولة الموحدية (524 ـ 668 هـ / 1130 ـ 1269 م) بشكل لا فت ، فأولى خلفاءها الحركة الأدبية عنايتهم الفائقة بفرضهم التعليم على الناشئة ذكوراً وإناثاً في كل أصقاع ملكهم وبعد تهاوي أركانها، وتفكك أوصالها وتوارثت الدويلات الثلاث ساحتها المغاربية ، نشطت الحركة التعليمية والأدبية أكثر ، إذ أسس أولو الأمر مدارس عليا على نمط المدارس النظامية في المشرق وكانت الأسبقية للحفصيين فقد بنى أبو زكرياء الحفصي(ت 647 هـ) مدارس بإفريقيا (تونس) ، وجدت هذه المدارس عناية خاصة من ذوي الشأن، فأجروا الأرزاق والمنح للأساتذة والطلبة وعهدوا بالتدريس فيها لأشهر العلماء والأدباء.

وهكذا كانت هذه الفترة، بالنسبة للحركة الفكرية والأدبية في المغرب الأوسط مرحلة نمو وإشعاع، نبغ فيها عدد وافر من العلماء في سائر الميادين وذاع صيتهم، وشغلوا مناصب سامية في سائر أقطار المغرب والأندلس من قضاء وتدريس وكتابة وغير ذلك، ونشطت العلوم النقلية والعقلية، فأحرزت البلاد على تقدم ملحوظ في هذه المجالات.

ولعل مرد هذا التطور الفكري والأدبي بالمغرب الأوسط، إلى الدولة العبد الوادية التي استطاعت أن تبعث الحركة العلمية في هذه الربوع، بتأسيس أبي حمو الزياني مدرسته الأولى في تلمسان، فنهض

بالعلم نهضة شاملة، فأتيحت للشعراء والأدباء الفرص للإبداع وإثراء نتاجهم الأدبي والعلمي وللناشئة الإقبال على طلب العلم.

كما كان لهجرة الأندلسيين أثناء عصر الموحدين وبعده، إلى تلمسان وبجاية وغيرها من مدن المغرب الأوسط، أثراً هاماً في هذا التطور 11 من ذلك فلا غرابة من نبوغ ابن مرزوق وتألقه الخطابي وهو في طريق رحلته إلى طلب المزيد من العلم وهذا ديدن نبغاء طالبي العلم في التاريخ القديم، فقد رحل القاضي عياض إلى الأندلس طالباً، إلا أنه كان إنزيم مجالس الإقراء وإثرائها بحضوره المتميز، قال عنه شيخه عبد الله بن محمد الخشني (ت 526) ما وصل إلينا من المغرب أنبل من عياض 12، و لم يثبت عنه أن رحل إلى المشرق قط.

ولكن من الذي أسهم في تعليم ابن مرزوق حتى نبغ واكتسب هذه المعارف، لا ريب أن هناك عوامل كثيرة تدخلت في تكوينه منها الجو العلمي العام الذي كانت عليه البلاد المغاربية ومنها الجزائر، كما سبق الذكر وغيرها من العوامل لعل أبرزها.

التنشئة الأسرية:

حفل تاريخ العائلة المرزوقية بشخصيات مرموقة في العلم برزت فيه واشتهرت بالتقوى مما جعل منها ذات وضع اجتماعي وثقافي ممتاز في جميع بلدان المغرب الكبير13 ، فبيتهم بيت علم وولاية وصلاح 14، نشأ محمد في بيت شرف وجاه وثراء مادي متوارث كابر عن كابر، ألزمه أبوه التفرغ لطلب العلم وأصبغ عليه نعمه التي أكسبته العفة والتبتل ومجاهدة النفس والامتناع عن الأخذ الهبات والمنح من أحد، والالتزام بحضور حلق الإقراء والمجالس العلمية ، نلفيه يقول : إن أبي قد هاجر من أقصى بلاد المغرب لطلب العلم وهو المنفق علي ولا أريد أن أنقص أجره أو قدره أمام الله والناس.

أوبة محمد إلى تلمسان:

آثر الأب (أحمد) أن ينهي حياته في مجاورة الحرمين، فرغَّب ابنه في الرجوع إلى مسقط الرأس، بعد غياب طويل، من الحل والترحال في حواضر المشرق العربي طلباً للعلم والمعرفة، فامتثل الابن رغبة أبيه وانكفأ راجعاً إلى ربع صباه بتلمسان، حلَّ ابن مرزوق بها في يوم 17 رمضان 737 / 20 أبريل 1337م

نزوله في مصر

وفي أثناء هذا الرجوع عرَّج محمد الخطيب على مصر لزيارة الشيخ المرشدي في الإسكندرية تنفيذاً لوصية والده ، فكلفه الشيخ المرشدي ثانية بارتجال خطبة في الجامع الأعظم بالإسكندرية فأبهر الحضور بحسن بيانه وعمق معانيه ، فذاع صيته في القاهرة ، وأضحى حديث الخاص قبل العام ، فكان

عندما يمر بدكان أو مجلس من مجالس القضاء أو قاعة من قاعات الدروس يبادر من كان فيه بالقيام إجلالا واحتراماً، وتعظيماً وتقديراً لعلمه، ومما زاده تشريفاً أن الشيخ المرشدي نعته بالخطيب بقوله :ياخطيب ، كن خطيباً أنت الخطيب 15 فتأكد لديه عندئذ أنه في مصاف الخطباء.

فعاد نبراساً وارياً في العلم والفضيلة، وطبيباً حكيماً أديباً وشاعراً مرموقاً وخطيباً مصقاعاً ومؤرخاً لحوادث الزمان وفقيهاً ومحدثاً، نلفيه يقول: معتداً بنفسه، لا يوجد اليوم من يسند أحاديث الصحاح سماعاً من باب الإسكندرية إلى البرين والأندلس غيري16 فأبان عن قوة حافظته وعظيم قدره وعلوه كعبه على أقران زمانه في مصر والمغرب الإسلامي بعدوتيه الشمالية والجنوبية في الخطابة وعلم الحديث، وأنه ملك ناصية ذلك عن جدارة واستحقاق، فذكر عنه أنه خطب على ثمانية وأربعين منبراً في بلاد الإسلام مشرقاً ومغرباً.

في البلاط المريني:

تزامنت أوبة الخطيب مع التواجد المريني في تلمسان ، فأدناه السلطان أبو الحسن إلى بلاطه وأصبح أثيراً لديه وأصبغ عليه نعمه، واتخذه معلماً لأولاده وأودعه أمانة سر كتابته ، وأوكله خطابة مسجد العُبَّاد في تلمسان لعلو كعبه في شتى فنون العلم ولورعه وتقواه وماضيه الأسري العريق، فأضحت للخطيب عند السلطان حظوة ومكانة وأصبح من خاصته في مجلسه العلمي، وأشركه في بعض حروبه كمعركة طريف الشهيرة بالأندلس سنة 741 / 1340م، جرياً على مألوف الأمراء والملوك في إشراك العلماء والأدباء في مغازيهم لتحفيز الجُند وتسجيل مآثر حروبهم ، وفي هذه الحرب أسر ابن السلطان (أبو عمر تاشفين) من نصارى القشتاليين بالأندلس، فافتكه بن مرزوق بدلوماسية تنم عن حنكة سياسية نيرة، فبوأه هذا النجاح مكانة خاصة في البلاط المريني ، فأكسبه السلطان رضاه وأصبغ عليه نعمه ما ظهر منها وما باطن ، غير أن معاشرة أولي الحل والعقد والوقوف على أبواب الملوك غير مأمونة العواقب ، جلبت هذه الحظوة السلطانية النكبات على ابن مرزوق وأو قتعه السجن عدة مرات.

من فاس إلى تلمسان:

عصفت بالعرش المريني ريح عاتية زلزلت أركانه الداخلية والخارجية، فضل فيها الخطيب النأي بالنفس بالعودة إلى حلق التدريس في تلمسان التي استرجع عرشها السلطان أبا سعيد عثمان بن عبد الرحمن الزياني، فوقع بن مرزوق ضحية خلاف بين السلطان وأخيه ثابت حول مهادنة سلطان فاس التي كلف بها الخطيب، فغدروا به بعد اقتراحهم الإصلاح بينهم تقية على أنفسهم17 ، فأبعِد على إثرها إلى الأندلس في عام 752 / 1351م بعد إطلاق سراحه من السجن.

ابن مرزوق في الأندلس:

استقبله صاحب غرناطة (أبو الحاج بن الأحمر) سابع سلاطين بني الأحمر، استقبالا يليق بمقام العلماء النبهاء، وكانت المدينة حينها تعج بكبار العلماء والأدباء، لكونها أعظم مركز للدراسات الأدبية والعلمية والإسلامية في هذا القطر الغربي من العالم الإسلامي 18ظفر بن مرزوق بخطابة جامع الحمراء والتدريس في المدرسة السلطانية ومن تلاميذه في الأندلس، نذكر منهم:

/ 1لسان الدين بن الخطيب وزير السلطان (713 / 1313، 776 / 1374)، الشهير بذي الوزارتين والمعروف بشيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية ، كان من أحد تلامذة بن مرزوق النجباء أخذ عنه علوم الشريعة واللغة والأدب ، وكانت لهما صلات ودية وعلمية ، يصف لسان الدين بن الخطيب شيخه بقوله : هذا الرجل من طرف دهره ظرفاً وخصوصية ولطافة مليح التوسل حسن اللقاء ، نظيف البزة لطيف التأتي خير البيت ، طلق الوجه خلوب اللسان ، طيب الحديث ، مقدر الألفاظ عارف بالأبواب ، ألف مألوف كثير الأتباع والعلق ، مجدي الجاه، غاص المترل بالطلبة ، منقاد الدعوة ، بارع الخط أنيفه ، عذب التلاوة ، متسع الرواية ، مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير ، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف ، فلا يعدو السداد في ذلك ، فارس منبر غير جزوع ولا هياب 19 من أحد.

يظهر النص شخصية ابن مرزوق العلمية المميزة، بقدراتها الأدبية والعلمية في الأندلس والتي كانت عامل جذب جهابذة طلبة العلم إلى حلقه العلمية والتتلمذ على يديه، ومما يجب ذكره في هذا المقام أن التطور الأدبي الذي عرفه الأندلس هو نفسه الذي كان سائداً في حواضر المغرب الإسلامي كافة، بفعل التأثير والتأثر والمشيخة المشتركة، فالشخصية المبدعة غير محكومة بظروف البيئة أو الإقليم كما هو الشأن اليوم، فكان النتاج الأدبي إرثاً مشتركاً بين العُدوتين.

/ 2الشاعر والكاتب ابن زمرك محمد بن يوسف الصريحي(733 / 1333ـــــ 395 / 1393)، جنح إلى مصاحبة ابن مرزوق والتتلمذ عليه واختص في الأخذ عنه في العلوم الشرعية والتعمق في المعارف الصوفية، وعن طريقه تعرف على الأمير المريني أبي سالم إبراهيم في منفاه الاختياري بغرناطة ، أشاد الشاعر بمقام شيخه ومكانته بين العلماء وفي صقل شخصيته بقوله20

تُقرُّ لك الأعلامُ أنت فخرُها ـــــ وتُثني على علياكَ بالنَّظم والنثر
وتُنْبِي عنك الصالحاتُ بفعلِها ـــــ وتَصحبُكَ الأَيَّامُ باليُمن واليُسر
لقد كنت في العُبَّاد شمسَ هدايةٍ ـــــ تُبيِّن هَدْي الله في العُرفِ والنُكرِ
وللمجْد ما تُخفي وللفخر ما بدا ـــــ ولله ما تأتيه في السِّر والجهرِ
تَمُنُّ بعرفانِ وتُولِي عَوارفَاً ـــــ فيَا فوْزَ من تُقْري هناك ومن تَقْري

يقرُّ ابن زمرك بفضل شيخه ابن مرزوق عليه في تكوينه العلمي وترقيه في مدارج العلم والمعرفة وتوليه مقاليد السياسة في بلاط بني الأحمر، فعن طريق هذا الشيخ حقق ابن زمرك غايتين، تعميق معارفه الصوفية وتمكنه من التعرف على الأمير أبي سالم المريني المنشق عن أخيه في غرناطة والتي أهلته لتحقيق طموحه السياسي، يقول في ذلك21:

جبرت مهيضاً من جناحي ورِشْتَهُ ـــــ وسهَّلت لي من جانب الزَّمن الوعْرِ
وبوَّأْتني من ذِروة العزِّ مَعقلي ـــــ وشرَّفتني من حيثُ أدري ولا أدري
إليك انقطاعي في مَغيبي ومَشهدي ـــــ وَوِرْدي وإِصْداري وسِرِّي والجَهر
فكم مِنحةً أوليتنها جليلةٍ ـــــ وكم حِكمةٍ يوماً شرحتَ بها صدري
وكم من خُطاً أعملتُها في لقائِكُمْ ـــــ لأَغرفَ من بحرٍ وأَقْطِفَ من زَهرِ
رعى اللهُ دهراً أنت إنسانُ عينيهِ ـــــ ودُمْتَ لهذا القُطر أَجْدى من القَطْرِ

عاد بن مرزوق الخطيب إلى فاس بعد أن تمكن السلطان المريني أبو عنان من إزاحة أبيه والاستيلاء على العرش واستعادة تلمسان، فأضحى من مقربيه، لا يفارقه في حل أو ترحال، ثم نكبته الظروف السياسية فأودعه السجن فلم يغادره، إلا بعد أن ترك أبي عنان الحياة في 28 ذو الحجة 759 هـ.

ابن مرزوق في البلاط المريني:

وبتولي الأمير أبو سالم بن أبي الحسن العرش المريني في عام 760 / 1359، أوكل زمام دولته لابن مرزوق صفيه وخليل منفاه في الأندلس، فأضحى نجي خلوته والغالب على هواه، فانصرفت إليه الوجوه وخضعت له الرقاب ووطئ عتبته الأشراف والوزراء وعكف على بابه القواد والأمراء وصار زمام الأمور بيده ...، فمرضت قلوب أهل الحل والعقد من تقدُّمه فتربصوا به وبالدولة 22، فسجن بعد القضاء على ولي نعمته السلطان أبي سالم.

جدَّد ابن زمرك العهد واللقاء مع شيخه ابن مرزوق في ظل العرش المريني بفاس على عهد السلطان أبي سالم ، واعتبره من خاصته في تكوينه العلمي23 جلس الشيخ الخطيب للإقراء في حضرة السلطان وغيبته ، فتولى شرح كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى عليه الصلاة والسلام للقاضي عياض، وعلى الرغم من أن موضوع الكتاب في سيرة المصطفى ، إلا أنه يعد من أشهر كتب عياض وأجلها وأعظمها قدراً وأكثرها فائدة وأوسعها انتشاراً ، ولا عجب أن تلقته الأمة شرقاً وغرباً وامتدحه فطاحل العلماء نظماً ونثراً ، وأقبلوا عليه مدارسة واختصاراً وشرحاً 24 قديماً وحديثاً من الفقهاء والأدباء.

مدح ابن زمرك شيخه ابن مرزوق التلمساني بقصيدة وافية على شرحه لكتاب الشفا منها قوله 25

ولا مثل تعريفِ الشفاء حقوقَهُ ـــــ فقد بان فيه للعقول جميعُها
بمرآة حُسن قد جلتها يدُ النُّهى ـــــ فأوصافُه يَلْتاحُ فيه بديعُها
ولله ممَّ ن قد تصدَّى لشرحه ـــــ فلبَّاه من غُرِّ المعاني مُطيعُها
فكم مُجمَل فصّلت منه وحكمة ـــــ إذا كتم الإدماجُ منه تُشيعُها
بقيتَ لأعلام الزمانِ تنيلُها ـــــ هدىً ولأحداثِ الخطوبِ تَروعُهَا

كان ابن مرزوق آية في الفهم والذكاء والصدق والنزاهة واستنباط الأحكام واستجلاء المعاني من غموض مقاصدها، فمن ذلك جاء شرحه مستفيضاً ومستوفى لكتاب الشفاء، فحرَّك قرائح الشعراء التي تماهت مع ابن مرزوق ووجدت نفسها فيه، لأن العملية المعرفية لا تتم إلا داخل إطار ثقافي خاص، أي من خلال منظومة مرجعية ثوابتها الموروث الثقافي والروحي والواقع الاجتماعي الموحد فأقبلت هذه القرائح بالمدح والثناء على هذا الشرح المتميز (لابن مرزوق) منهم لسان الدين بن الخطيب بقوله26:

أأزاهير رياض ـــــ أم شفاء لعياض
جدل الباطل للـــــح ـــــ ق بأسياف مَوَاضٍ
سدد الله بن مرزو ـــــ ق إلى تلك المراضِ
زبدة العرفان معنى ـــــ كل نسك وارتياض

وله أيضاً في ذات السياق قوله:

يامن له الفضلُ على غيره ـــــــ والشمس تَخفى عند اشراق بوحْ
يا خير مشروح وفى واكتفى ـــــ من ابن مرزوق بخير الشروح27

ومن قراء الشفاء أيضاً على ابن مرزوق في فاس، المقري التلمساني نلفيه يقول: وعاشرته كثيراً سفراً وحضراً وسمعت بقراءته وسمع بقراءتي، وقرأت عليه الكثير، وقيدت من فوائده، فأول ما قرأت عليه بالقاهرة في أحد مساجدها وقرأت بمدينة فاس، وبظاهر قسنطينة، وبمدينة بجاية وبمنزلي في تلمسان، ثم قرأت عليه أكثر كتاب الموطأ رواية يحي، وأعجله السفر فأتمته عليه في غير القاهرة ... ثم قرأت عليه كتاب الشفاء لعياض 28

وذلك لأن ابن مرزوق كان آية في القراءة والإقراء وفي فنون العلم والأدب والسياسة والدين ومن أبز الشخصيات الجزائرية التي عرفها العالم في القرن الثامن الهجري ولا سيما بالمغرب [الكبير] والأندلس والشام 29وغيرها من البلدان العربية.

رحلته إلى تونس:

وبتبدل الأحوال في البلاط المريني بفاس سنة 762 هـ / 1361 م رمت رياح الغضب السياسي بابن مرزوق في السجن، وبعد إطلاق صراحه رحل إلى تونس التي شغف بحبها وحب أهلها، قبل وفادته السلطان أبي إسحاق الحفصي واستقبله استقبالا حسناً وأولاه الخطابة في مسجد الموحدين، والتدريس في مدرسة الشماعين، وبمقتل السلطان الحفصي سنة 770 هـ / 1369م فأصبح الحال غير الحال، فاضطر ابن مرزوق إلى ترك البلاد المغربية نهائياً والرحيل إلى المشرق.

رحيله إلى مصر:

دخل الإسكندرية أولا في عام 773/ 1372 ثم القاهرة ملقياً بها عصى الترحال أرضاً، فسبقته مكانته العلمية وسمعته السياسية فنفقت بضائعه العلمية والأدبية، وجلس للإقراء كعاته أينما حلَّ، فأولاه السلطان المملوكي الأشرف شعبان بن

حسين وظائف علمية، فعينه قاضياً ومفتياً وخطيباً ومدرساً في مساجد صلاح الدين الثلاثة الشخنية ، والصرغمتشية ، والنمحية 30،وظل موفور الجاه معزز الجانب إلى أن أدركته الوفاة بالقاهرة في ربيع الأول 781 / يونيو 1379م.

ثالث ثلاثة

يمكننا القول أن ظروف ابن مرزوق الشخصية والأدبية والسياسية تتشابه مع ظروف عبد الرحمن بن خلدون ولسان الدين بن الخطيب ، لتقلبهم في بلاطات الأمراء والملوك ومشاركتهم في صنع تاريخ المغرب الإسلامي في القرن الثامن الهجري ، ولذلك لقدرتهم الأدبية وحنكتهم السياسية، قال عنهم بروفنسال: أن هؤلاء الثلاث هم المؤرخين الأساسيين للمغرب العربي في نهاية العصور الوسطى31

وقال المهدي البوعبدلي عن مؤلف المسند الصحيح لابن مرزوق 32، أنه لا يمكن أن تتم دراسة ما عن المغرب العربي بدون معرفة هذه المؤلف، لتقلب صاحبه في بلاط ثمانية ملوك في فاس وتلمسان وغرناطة وتونس والقاهرة.

كان لهذا الثالوث المغاربي مشاركة فاعلة في صنع أحداث المغرب العربي والأندلس وغيره من البلدان العربية في القرن الثامن الهجري، فكان لصيتهم صدى خارج منطقتهم المغاربية غرباً وشرقاً، احتك هؤلاء بالأمراء والملوك والوزراء وكبار الدولة والشخصيات الثقافية التي عملوا معها جنباً إلى جنب في البلاط المريني بفاس وفي بلاط بني الأحمر بغرناطة، أنيطت بهؤلاء مناصب سامية التي لم تكن تسند إلا لمن برهن على كفاءة نادرة ومقدرة علمية فائقة وثقافة واسعة ومهارة فائقة في خدمة الملوك والأمراء وذوي الشأن.

يقول لسان الدين عن شيخه ابن مرزوق: درب على صحبة الملوك والأمراء يسحرهم بخلابة لفظه، ويفتلهم في الذروة والغارب بتنزله، ويهتدي إلى أغراضهم الكامنة بحذقه، ويصطنع غاشيتهم بتلطفه ممزوج الدعابة بالوقار والفكاهة بالنسك وبحشمة بالبسط، فكان خبيراً بنزعاتهم النفسية، لأن هؤلاء على الرغم من تكوينهم الديني، إلى أن تفكيرهم كان أقرب إلى الحكماء منهم إلى الفقهاء.

آثاره العلمية

لقد ترك بن مرزوق ثروة علمية هامة كغيره من أعلام الجزائر الذين لا زالت نفائس مصنفاتهم في حكم الضياع ما دامت بعيدة عن الباحثين والأكاديميين، فهم وحدهم القادرين على استجلاء مكامنها المعرفية وإظهارها للأجيال، ولعل من أهم مصنفات ابن مرزوق كتابه النفيس ،المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، ألفه في رمضان 722 / مارس 1371، (وهو مطبوع في الجزائر ، وأعادت طبعه وزارة الثقافة فلها كل الثناء والشكر في التفاتها للتراث الجزائري في إطار المهرجان الثقافي الدولي تلمسان عاصمة الثقافة العربية) ـــ ، تحدث محمد الخطيب في هذا الكتاب بشكل خاص عن سيرة السلطان المريني ومن خلاله كل ما يجب على الحاكم مسلم فعله تجاه رعيته بشكل عام.

قد يعد هذا المصنف كتاب تاريخ لأنه تحدث عن الدولة المرينية بشكل مستفيض، فهو معاصر لمن صنع أحداثها، ومن المشاركين فيها بحكم تواجده في البلاط، وكتاب أدب أيضاً لاحتوائه الكثير من النصوص النثرية والشعرية التي انتخبها الكاتب من مدونة الأدب العربي ومن قريضه الخاص، والحكم النثرية والأحكام الفقهية المدعمة بالنصوص الثبوتية من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التي تومئ إلى عميق ثقافته الدينية وسعة اطلاعه في ضروب المعرفة.

كان هدف محمد الخطيب من هذا الكتاب إرضاء السلطان المريني أبا فارس بمدح والده أبي الحسن وتذكيره بالمكانة التي كان يحظى بها عند والده آملا في إحياء مجده المفقود في البلاط المريني.

ـــــ النور البدري في التعريف بالفقيه المقري، وقد اعتبر أحمد المقري أن ابن مزوق استوفى التعريف بجده.

ـــــ برح الخفا في شرح الشفا للقاضي عياض.

ـــــ تظهر هذه المصنفات وغيرها ممن لم نأت على ذكرها طول باع صاحبها في النظم والنثر، وعن وغزارة علمه ومرجعتيه المعرفية التي كانت سائدة في عصره ومصره، وفي كل الأحوال فهي جديرة بالبحث والدراسة من المهتمين بالأدب الجزائري القديم.

خلاصة: يعد محمد بن مرزوق سليل عائلة ثرية وعريقة في الدين والعلم والأدب، تلمساني المولد والمنشأ، رحل به أبوه إلى الحجاز لأداء فرضة الحج، ومن ثم التفرغ لطلب العلم، فنبغ فيه وصار لوذعي مصره وعصره في شتى أضرب العلم والمعرفة، فتبوأ مقعد صدق في البلاط المريني وأضحى من خاصتهم، وتتلمذ عليه الأديب لسان الدين بن الخطيب، والشاعر الفذ بن زمرك، وتوقفت به رحالة الحياة في مصرفي عام 733 هـــ. تاركاً وراءه ثروة أدبية وتاريخية للأجيال اللاحقة.

الإحالات والهوامش:

1محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني: الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، مصر، 1349، هـــ ص 6.

2 أحمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، القاهرة،1949، 7 / 338

3 عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني، د، ت،2 / 400.

4 عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، 1980، 2 / 131

5 5عبد العزيز فيلالي: 2 / 395.

6 نفسه: 2 / 395.

7نفسه: 2 / 394.

8ابن مريم: الستان، مراجعة، محمد بن أبي شنب، الجزائر، 1908، ص 1088.

9 ينظر محمد الجابري: بنية العقل العربي، بيروت، 1986، ص 25.

10 أحمد المقري: النفح، 5 / 533.

11 عبد 11 ينظر الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره، الجزائر،1974، ص 36.

12 الحسين بن محمد شواط: القاضي عياض، دمشق، 1999، ص 76.

13 محمد بن مرزوق: المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، الجزائر، 1981، ص 17.

14 أحمد المقري: النفح، 7 / 388.

15 عبد العزيز فيلالي: 2 / 395

16. المقري: النفح، 5 /

17 نفسه: 5 / 14.

18 نفسه: 5 / 396.

19 لسان الدين بن الخطيب: السحر والشعر، مصر، 1999.

20 الديوان، ص 295، 296.

21 الديوان: ص 297.

22 ابن خلدون عبد الرحمن: العبر، 1983، 13 / 649.

23 أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، تقديم عبد الله الهرَّامة، طرابلس، 2000، ص 479.

24الحسين بن محمد شواط: ص، 217.

25 الديوان، تحقيق، محمد توفيق النفير، ص 439.

26 أحمد المقري: النفح، 5 / 400.

27 نفسه، 5 / 411

28 نفسه، 5 / 200.

29 عبد الرحمن الجيلالي: 2 / 131

30 محمد بن مرزوق: ص 30.

31- 30 Lévi – Provençal – Le voyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Grenade (1350), « mélange William Marçais », Paris 1950, p 205 32محمد بن مرزوق: ص 14.